مجلة علمية دولية محكمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة بجامعة تيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.
المجلد: 06/ العـدد: 02 ديسمبر (2022)، ص.48/40

أسلوب القسم في القرآن –دراسة حجاجية-

Oaths in the Qura'an – Argumentative Study –

قويدر ربيعة*
rabiaakouider@gmail.com
جامعة الجزائر -1-
(الجزائر)

محمّد بشير باي
mbachirbey@yahoo.fr
جامعة الجزائر -1-
(الجزائر)

تاريخ الاستلام:2021/06/26 تاريخ القبول:2021/11/12 تاريخ النشر:2022/06/02

ملخص:
استخدم القرآن أسلوب القسم تماشيا معحال المخاطبين المختلفة، وإقامة للحجة عليهم، فكان الغرض من التعرض لهذا الأسلوب الوقوف على أهميته في الخطاب، وفعاليته في الإقناع وإقامة الحجة على المخاطبين، ولما يكتسيه من قداسة لدى المتكلم والمخاطب تحمل على التصديق لا الإنكار.
وخلص البحث إلى أنّ القسم من أهمّ أساليب التوكيد والتوثيق ودفع الشك، وله قوة تأثيرية عن طريق الانتصار العقلي في إقامة الحجة وعرضها.
كلمات مفتاحية:القسم، الحجاج، المخاطب، التأثير، الإقناع.

Abstract:
The Holy Quea' an employs oath according to the different targeted audience in order to set forth arguments. The objective of addressing this style is to understand its importance in speech, in addition to its efficiency in persuasion and argumentation. Moreover, because of the holiness with which this style is endowed, whether to the speaker or audience, its only outcome is belief, instead of denial.
This study concluded that oath is amongst the most important assertive methods, and dispelling doubt. It has an impactful ability in establishing and presenting the argument.
Keywords: *Oath; Argumentation; Audience; Impact; Persuasion.*

المقدمة:

نزل القرآن الكريم للناس كافة، ووقف الناس منه مواقف متباينة ومتخالفة، فالبعض قابله بالإنكار التام، والبعض الآخر كان موقفه موقف المتردد الحيران؛ ومنهم المؤمن المصدق، ونظرا لخصوصية كل طرف توجه القرآن إلى كلّ منهما بما يناسبه من خطاب، وبما يلائمه من أسلوب. وكان من الأساليب التي سلكها القرآن مع الكافرين والجاحدين وكافة المخاطبين أسلوب (القَسَم)، كنوع من الخطاب الذي ينتصر للحجة بالإقناع العقلي.

*المؤلف المرسل

كيف وظف القرآن أسلوب القسم كوسيلة للإقناع؟ وما هي الأدوات اللغوية التي لجأ إليها في سبيل محاججة المتلقي واستمالته؟ وهل كان له دور حجاجي لكونه يمين مقدس لدى أطراف الخطاب لا يتوقع الشك فيه وإنكاره؟
ولما كان القسم بهذه المزية، كان حريا به أن يكون موضوعا للدراسة والتحليل، لغرض الوقوف على أغراضه وعلى أدواته وقوته الإقناعية، ودوره في قمع سورة الكاذب المخاصم، وتقوية يقين المصدق المهتدي، وإرشاد الحيران المتردد ؛وقطع الشكوك، وتعظيم المعظم، والدلالة على من هو أدنى منه.
فجاءت منهجية البحث مبنية على مقدمة، ومدخل مفاهيمي للوقوف على القسم وأقسامه، وكذا الحجاج وأدواته، ثم وقفة تحليلية لحجاجية القسم، وبعد ذلك التطرق لنماذج من القسم القرآن بالشرح والتحليل والتأويل، وخاتمة تضمنت أهم ما توصل إليه البحث من نتائج.

_القسم والحجاج:

القسم في اللغة يأتي على عدة اطلاقات؛ من بينها: القَسمْ –بفتح السكون- يدل في اللغة على تجزئة الشيء[1] وهو مصدر وقسَّمه: جزَّأه، والقِسم- بالكسر: النصيب والحظ والجمع: أقسام[2] والقسَمُ –بالتحريك- اليمين[3] والجمع: أقسام. وأقسمت: حلفت[4] فدائرة القسم في المعنى اللغوي: تقع على التجزئة؛ وبمعنى النصيب والحظ؛ وترد بمعنى الحلف واليمين أيضا.
فاليمين: مأخوذ من المتحالفين يأخذ كل منهما بيمين صاحبه، فصار القسم يسمى يمينا.قال تعالى : "لا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ باللَغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ولَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ" المائدة: 89، والحلف: أصله المحالفة والمعاهدة وعند حصول التحالف والتعاهد بين الناس يقع تأكيدها بالأيمان، فصاروا يطلقون الحلف ويقصدون اليمين نفسه. قال تعالى: "يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين" التوبة: 65. [5] والعلة في إطلاق الحلف على القسم هو ما أشار إليه الفراهي بقوله: ذكرنا أن القسم ربما يهين قدر المرء ويذهب بشرفه، فانظر كيف ينبه القرآن على هذا الأمر، باستعماله كلمة "الحلف" فيمن يصغر نفسه بيمينه، ويلحُّ حيث لا يلحُّ الشريف" وكأن الحلف أدنى مرتبة من القسم، وأن القسم لا يقع إلى من عظيم.[6] ويدل هذا على ارتباط تسمية القسم بما يكون من انقسام الناس وقت سماع الخبر إلى مصدق ومكذب، فصار الذي يحلف مؤكدا للقسم الذي اختاره ومحيلا الصدق إليه، ولذلك سمي الحلف قسما.[7]
وهكذا نجد أن المعنى في كل من القسم واليمين والحلف راجع إلى معنى التأكيد والتقوية.
والقسم اصطلاحا: هو "يمين يقسم بها الحالف ليؤكد بها شيئا يخبر عنه من إيجاب أو جحد"[8] والغرض من هذا التوكيد إزالة الشك عن المخاطب بتوكيد الخبر في النفي والإثبات[9] فيحلف المتكلم بما يكون فخر له، أو تعظيم لشأنه أو تنويه لقدره أو ذمّ لغيره، أو جاريا مجرى الغزل الرقيق، أو خارجا مخرج الموعظة والزهد كقوله: فوربّ السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون" [10]
قال المبرد: "واعلم أن القسم لا يقع إلا على مقسم به ومقسم عليه"[11] فأسلوب القسم يقوم على جملتين تؤكد إحداهما الأخرى؛ فالجملة المؤكد بها هي جملة القسم، والجملة المؤكدة هي المقسم عليها، وهي ما يسميه النحاة جواب القسم"[12]
ولكل من هذين الطرفين ضوابط لا يسمى الأسلوب قسما بدونها، وذلك أن جملة القسم لا بد أن تكون في صياغة انشائية بحيث يقصد بها توكيد ما بعدها من الخبر بما يذكر فيها من المقسم به، والجواب لا يكون إلا خبرا، فإن كان طلبا كان استعطافا[13] ومن الاشارات التي ذكرها النحويون لقيمة عظمة المقسم به في توكيد المقسم عليه، وهي قيمة تفسر سر دخول معنى التعظيم في القسم، وذلك أن المقسم كثيرا ما يلجأ إلى اختيار ما هو عظيم فيقسم به؛ لأن في عظمة المقسم به ما يشعر بعظمة المقسم عليه في نفس المقسم، أو أن المقسم يلجأ إلى ذلك لإشعار مخاطبه بعظمة ما يقسم عليه[14] لذلك كان القسم لا يصدر إلى عن عظيم.
أركان القسم:[15] وللقسم أربعة أركان: مُقسم؛ و مُقْسَمٌ به؛ و مُقْسَمٌ عليه؛ ومُقسم له.
أدوات القسم: وهي الباء نحو: بالله العظيم. وينوب عنها حرف الواو غالبا، ويدخل على الظاهر دون المضمر نحو: (والله) أي: وربي إنه لحق.
وحرف التاء ويختص بلفظ الجلالة نحو: "وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين" الأنبياء: 57. قال الخليل: "إنما تجيء بهذه الحروف لأنك تضيف حلفك إلى المحلوف به، كما تضيف (مررت به) بالباء إلا أن الفعل يجيء مضمرا في هذا الباب"[16] وكثيرا ما يستغنى عن فعل القسم بهذه الحروف، لعلم السامع به ودلالة المعنى عليه؛ فإذا قلت: بالله

لأفعلن، ووالله لأفعلن، وتالله لأفعلن، كان ذلك على إضمار: أحلف، وأقسم[17] ومنه قوله تعالى: "قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين" الحجر 82.
والقسم الوارد في القرآن الكريم ينقسم إلى نوعين:
النوع الأول: القسم الظاهر وهو ما ظهرت جميع أركانه أو أغلبها، وهذا له صور منها أن يتعدد المقسم به مع انفراد المقسم عليه، كما في قوله تعالى: "والطور وكتاب مسطور في رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور إن عذاب ربك لواقع" الطور: 1- 7.
ومن صوره أن يتعدد المقسم به والمقسم عليه كقوله تعالى: "والضحى والليل إذا سجى ما ودّعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى" الضحى: 1-5.
وقد ينفرد المقسم به مع تعدد المقسم عليه: "والنجم إذا هوى ما ضلّ صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى" النجم: 1- 4.
القسم الثاني: وهو ما دلّ عليه مضمون الكلام نحو قوله تعالى: "لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا" آل عمران: 186.
فلفظ القسم وأداته غير موجودين في الكلام، ولكن علماء اللغة يقدرون في الكلام قسما مضمرا ويقولون "والله لتبلونّ" ويجعلون فوق قرينة التوكيد قرينة على ذلك والمذكور وهو المقسم عليه.
وقد يذكر المقسم به والأداة، ويحذف المقسم عليه كقوله تعالى: "ص والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا في عزّة وشقاق" ص 1-2.[18]

_ الحجاج:

تعريف الحجاج: يرد الحجاج في المعاجم على عدة معان منها (الغلبة)، يقال "حاججت فلانا فحججته أي غلبته بالحجّة، والجمع حجج"[19] و"الحَجّة: البرهان، "[20] وقيل: الحجّة مادوفع به الخصم. والحجُّ: القصد. وحجّه يحجّه حجّا: قصده[21] والحُجّة بالضم: الدلالة المبينة للحجّة أي المقصد المستقيم الذي يقتضي أحد النقيضين. وهي كلام ينشأ من مقدمات يقينية مركبة تركيبا صحيحا[22] فيكون من المعاني المستفادة للحجاج في المعاجم، أنه برهان يقصد إليه المرسل، للتأثير في المتلقي، ويغلبه على رأيه، ويصده عن معتقده، عن طريق الاقناع.
أما اصطلاحا، فيرى طه عبد الرحمان أنّ " حدّ الحجاج أنه كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها"[23] ويتكون الحجاج عموما من أساسيات هي: الدعوى (أو النتيجة)، والمقدمات أو تقرير المعطيات، والتبرير، والدعامة، ومؤشر الحال، والتحفظات أو الإحتياطات[24]

_ القيمة الحجاجية للقسم:

يقوم الحجاج على مبدأ التفاعل والحوار، وهذه النظرية تقوم على طرفي العملية التبليغية، بحيث تكون في الأول نية التأثير في الطرف الثاني ذلك "أننا نتكلم عامة بقصد التأثير"[25] إذ أنّ الحجاج هو فن الإقناع يتوخى " إثبات شيء ما أو معارضته وقد يظهر بطريقة مباشرة في سياق ما، كما قد يختفي في سياق آخر وذلك لتداخل عوامل أخرى"[26] وموضوع الإقناع هو فعل الصورة الحجاجية وغايتها، ويتحقق ذلك من خلال العبارات وما تخلفه من آثار ونتائج مهما كانت صفتها، فإن إيقاعها يبقى إقناع الآخر، ليس من باب إحداث الغلبة لطرف على حساب الآخر، ولكن من أجل الحوار والتواصل. فيلجأ المخاطب إلى تقديم الدعوى في أحسن صورة وأكدها عبر سلسة خطوات " يحاول بها الفرد أو الجماعة أن تقود المستمع أو المخاطب إلى تبني موقف معين، وذلك بالاعتماد على تمثيلات ذهنية مجردّة أو وحشية ملموسة أو على قضايا حازمة، تهدف إلى البرهنة على صلاحية رأي أو مشروعيته"[27] .
والناس أصناف ومستويات في تلقي الخبر وقبوله، كما عبر عن ذلك الرازي بقوله "الناس طبقات، فمنهم من لا يقرُّ بالشيء إلا بالبرهان الحقيقي، ومنهم من لا ينتفع بالبرهان الحقيقي بل ينتفع بالأشياء الاقناعية نحو القسم[28] لذلك كان القسم أحد الأساليب المؤكدة للكلام، قال سبويه: "اعلم أنّ القسم توكيد لكلامك"[29] ومنه كانت الحاجة ماسّة إلى إشراك القسم في الكلام، كونه يؤكد الدعوى قبل عرضها، وما ذاك إلا تنبيه للمخاطب واستمالته إلى سماع الكلام "لأن من أخبر عن شيء وأكده بالقسم فقد أخرجه عن الهزل وأدخله في باب الجد"[30] فإن النفس تطمئن بطبيعتها وترتاح

إلى ما يعرض عليها مقرونا بقسم أو حلف أو يمين، فإن أخبر أحدٌ أحدا بأمر، وأراد منه أن يصدقه وينقل عنه مضمون الخبر أو العهد، أكده له وأتْبعه بالقسم.[31] قال الطوسي: القسم جملة من الكلام يؤكد بها الخبر، بما يجعله في قسم الصواب دون الخطأ، أو في حيز المتحقق، على طريقة: بالله إنه لكذا[32] للدلالة على أن المخبر عنه واضح بيّن لا يحتاج إلى قسم[33] وقد صرح بن القيم: قد يراد بالقسم توكيده وتحقيقه، وقد يراد به تحقيق المقسم عليه.[34] والقسم في الخطاب من أساليب التأكيد التي يتخللها البرهان المفحم، والاستدراج بالخصم إلى الاعتراف بما يجحد[35] وأشار محمد بكر إسماعيل: أسلوب القسم في اللغة طريق من طرق توكيد الكلام، وإبراز معانيه ومقاصده، على النحو الذي يريده المتكلم، إذ يؤتى به لدفع إنكار المنكرين أو إزالة شك الشاكين. واذا كان المتكلم قد رأى أن المخاطب يشك في كلامه، أكد له القول بنوع من أنواع التوكيد، وأهمها القسم[36] ولما كان القرآن الكريم، وهو كلام رب العالمين وهو سبحانه أدرى بالنفوس البشرية، من هنا ذخر كتاب الله بألوان القسم لدحض شبه المكابرين. وكان القسم يتكرر في صور شتى لدفع إنكار هؤلاء المعاندين واستدراجهم إلى الاعتراف بما ينكرون.

يقول د. أحمد بدوي: "وإذا كان القسم لا ينجح أحيانا في حمل المخاطب على التصديق، فإنه كثيرا ما يوهن في النفس الفكرة المخالفة، ويدفع إلى الشك فيها، ويبعث المرء على التفكير القوي فيما ورد القسم من أجله"[37] فالناس ليسوا سواء في التجاوب مع الدعوة، لذلك احتيج إلى القسم لتأكيدها وطمئنة المخاطب، ذلك أن القسم له قداسة ما تجعله لا يلحق كلاما إلا صادقا، وبناء عليه يكون القسم وسيلة من وسائل الإقناع.

وتتلخص حجاجية القسم بصفة عامة، والقرآني بصفة خاصة، وهي التي لخصها عبد الحميد الفراهي وهي:

الأول: إظهار التأكيد والجد في القول، كما ترى في قول المرسلين من النصارى، حيث جاء في القرآن: "قالوا ربّنا يعلم إنّا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين" يس: 6-16.

ولذلك كثر القسم في أوائل النبوة حتى تبين لهم جده.

الثاني: كون القسم إنشاء. وذلك يُبهم طريق الإنكار على الخصم –إن شاء- أنكر جواب القسم لكونه خبرا. ولكنه لا يسنح له أن ينكر القسم نفسه لكونه إنشاء. كما إنه لا يتوجه إلى إنكار الصفة، مع أنها –في الحقيقة- من الأخبار.

الثالث: إيجاز هذا اللفظ للاستدلال. فإن اللفظ إذا قلّ، يتراءى المعنى متجردا عن حُجُبه، فيزيده تنويرا وتأثيرا، كأنه أرهف حده، وقُرِّب بعده.

الرابع: إشراك السامع في استنباط الدليل، وذلك مما يكسر سورة (حدة) خصامه، فإنه إذا علم شيئا بعد التأمل، فرح به، واهتزّ له، وترى ذلك بيّنا في أقسام القرآن. فإنها تعرض على السامع أمرا يدعوه إلى استعمال عقله، وربما تسوقه إلى سَمْت الدعوى بلطافة وتدريج.

الخامس: وضع الدليل في غير صورته كيلا يبادر المُنْكِر إلى المخاصمة، لأن ذلك يذهله عن الخصام.

السادس: ما أعطت أوائل السور من نضرة بهجتها، ورونق ديباجتها، إذ تلمع الأقسام في قسمات السور –على الأكثر- كالغرة البيضاء. وأما الذي جاء في أثناء السور من الأقسام فقليل، ومثاله كالتصريع في أثناء القصيدة. وقد اصطفى القرآن له كل ما إن صُوِّر على عنوان الكتاب، أو تمثّل للفعل في مطلع الخطاب، ملأ العين والفؤاد بحسنه وجلالته، بل يجلُّ أكثرها عن التصوير لكمال عظمتها، وضيق نطاق الخيال عن سعتها.

السابع: تقديم ذكر الدليل على ذكر الدعوى، فيلقى أولا على الخصم أمرا يوجهه إلى سمت لا بد أن يجلبه إلى الدعوى. فإن المنكر إذا علم من قبلُ ما تريد الاستدلال عليه_ أخذ سمتا (جهة) آخر، وتنكب عن الوجه الصحيح. فإذا لم تذكر الدعوى أولا، يوشك أن يتوجه إلى صراط مستقيم. فإذا سار على قصد السبيل، قُدْته إلى آخر النتيجة.[38]

الثامن: كون القسم من جوامع الكلم

_ تحليل نماذج من القسم القرآني:

قال تعالى: "كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ" الحجر 92-93. وجملة القسم في قوله "فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون" فتضمنت الآية أركان القسم، وهي المقسم: وهو الله سبحانه وتعالى، والمقسم له: وهو النبي ﷺ، والمقسم عليه: وهم الكفار المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين، أو العباد أجمعين مؤمنهم وكافرهم، وأداة القسم: وهي الواو مضاف إليها اسم الربّ.

والقسم هنا على جملة طلبية.[39] وليس الرسول عليه الصلاة والسلام ممن يشكّ في صدق هذا الوعيد حتى يقسم له؛ ولكن التأكيد متسلط على ما في الخبر من تهديد. ووصف الربّ مضافا إلى ضمير النبي ﷺ إيماء إلى أن في السؤال المقسم عليه حظا من التنويه به.[40] فكان لاختيار القسم باسم الرب، خصوصية تناسب حال المخاطب بالقسم، والذي سيق القسم تسلية له، واسم الجلالة هو "اسم منبئ عن العظمة والهيبة كان يخافها المؤمن بل النبي ﷺ أن يلحقه ذلك، لكونه تعالى مستغنيا عن العالم بأسره، فضلا عن واحد فيه فأمنه بقوله (ربك) فإنه حين يسمع لفظ الرب يأمن"[41]

فأقسم الله سبحانه وتعالى على نفسه أنه سيسألهم، وهذا تهديد شديد؛ لأنّ المراد من هذا أنه سيسألهم سؤال توبيخ وتهديد[42] وفي هذا أعظم ترهيب وزجر لهم عن الإقامة على ما كانوا عليه[43] والقسم بالواو على وجه من التأكيد والتقرير والإعظام[44] وقد افتتح القسم بالفاء وهي تدل كما يقول أبو السعود على ترتيب الوعيد على أعمالهم التي ذكر بعضها[45] في السياق السابق وفي ثنايا سورة الحجر.

إن المخاطب المنكر هنا وهو خالي الذهن عما ينتظره من جزاء، إذ القسم على المشركين قسم على البعث، ويوم البعث معلوم مجهول، فلتقريب صورته إلى المخاطب كانت عن طريق تمثلات ذهنية لينشأ له تصور عن ذلك اليوم، ولأجل تقرير هذه الحقيقة وتأكيدها، دعم حجته بمؤكدات في قوله (لنسألنهم) و بقوله (أجمعين) مقرونة باللام والنون المشددة، ليثتب ويؤكد على أمر البعث الذي أنكره المشركون، فهو قسم على السؤال يتضمن الإخبار عن وقوع البعث لأنه – أي السؤال- لا يكون إلا بعد البعث، وعلى هذا يكون البعث مما أقسم عليه الله تعالى في هذا الموضع وهو من اختصاص الربوبية، لذلك جاء القسم باسم (الرب) فناسب المقسم المقسم عليه. وما اجتماع هذه المؤكدات إلا سبيل لتقرير حصول ذلك الأمر، وفي ذلك مبالغة في الوعيد والتقريع، وإظهار عظيم اللطف والتسلية للنبي الكريم عما لاقاه من هؤلاء المكذبين، وأنه في معيته منتصر له منهم. ولفظ السؤال مما يلقي في النفس رهبة وخوفا، ويزيد ذلك إذا كان عن شيء علمته وفعلته، فكون مجال الانكار هنا أبعد، من لو كان السؤال عن شيء لم يصدر عنهم، فتأمل دقة اختيار الألفاظ وإيحاءاتها العميقة، وهي كلها تساهم في تقوية الحجة وتأكيدها، وحتى يهيأ المخاطب نفسه للجواب إن كان يقدر. فكأن النبي ﷺ قدم لهم الجواب في الدنيا فخاصموه وجحدوه، فغضب الرب لنبيه، وكأن صيغة الكلام: هيئوا أنفسكم للجواب الذي تعتقدونه.

قال تعالى: "قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ" يوسف: 73.

ورد هذا القسم في سورة يوسف في الآيات التي تتحدث عن المكيدة التي دبرها يوسف لإخوته لأجل استبقاء أخاه عنده في قوله تعالى " ولمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه... نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم" يوسف: آ 69- 75.

وهنا تظهر دعوى الحجاج والرد عليها، في نسق تسلسلي في عرض الدعوى ونقضها، مدعومة بألفاظ ومؤكدات تعزز موقف كل طرف، في سبيل إقناع الآخر وتغيير حكمه، وفق سلم حجاجي انتهى بتسليم أحد الأطراف لمضمون الدعوى.

الدعوى: (أيتها العير إنكم لسارقون) الخطاب لجميع أفراد القافلة، والثقة في حصول السرقة منهم لذلك جاء الخطاب مؤكد ب(إن) و(اللام)، بدل أن يجيء التعبير (إنا نفقد) أو (سرق منا)، اتهام مباشر باقتراف السرقة.

الرد عليها: (فأقبلوا عليهم ماذا تفقدون) أي: إخوة يوسف فما كان ردهم إلا أن (أقبلوا عليهم)، وهي جملة حالية، أقبلوا على طالبي السقاية أو المؤذنين والتعبير بالإقبال لإبعاد التهمة، فإنّ السارق ليس له همٌّ إلا البعد والانطلاق عمن سرق منه، وهؤلاء أقبلوا بدل أن يفروا وليس لهم هم إلا أن يثبتوا براءتهم.

ـــ ولذلك جاء تعبيرهم بالفقد (ماذا تفقدون) بدل (ماذا سرقنا) فقد ساءهم أن يرموا بهذه المثلبة وقالوا: ماذا تفقدون؟ ليقع التفتيش فتظهر براءتهم، ولم يلوذوا بالإنكار من أول، بل سألوا كمال الدعوى رجاء أن يكون فيها ما تُبطل به فلا يحتاج إلى خصام. وجاء الإنكار بلسان واحد صادر عن الجميع يثبت البراءة ويستغرب التهمة ويستفهم عن المفقود، فلو كانت السرقة واقعة من أحدهم أو جميعهم لاضطربت أقوالهم ولتباينت، ولظهر عليهم التردد والحيرة والخوف، لكن شيء من ذلك لم يحصل، بل حصل التوافق في الاستفهام وهذا غاية في الصدق وكمال البراءة. فهم لم يبادروا إلى نفي السرقة

بمجرد اتهامهم بها، بل يبادرون إلى السؤال عن المفقود؛ كأنهم لا يستبعدون أن يكون قد فقد شيء، ولكنهم على يقين أن آخذه ليس منهم، وهذا مخالف لسلوك من يسرق فإنه يحرص –غالبا- على ألا يثبت مفقودا، ليبعد التهمة من أصلها.
الدعوى: ثم ينتقل الخطاب الحواري إلى المدّعي، ليقرر التهمة ويكشف عن ماهية المسروق (قالوا نفقد صواع الملك) واضافة الصواع إلى الملك لتشريفه، وتهويل سرقته على وجه الحقيقة.
الرد عليها: ولم يتأخر إخوة يوسف في إبطال هذه الدعوة وإنكارها، والتأكيد على براءتهم بقسم مقرون بعرض حجج في موقف الدفاع عن أنفسهم مما رموا به.
تالله: حسن اختيار صيغة القسم ليؤدي غرضه الحجاجي، وقالوا تالله وهي لا يقسم بها إلا في الله خاصة، قسم فيه معنى التعجب مما أضيف إليهم. وقداسته مدعاة لتصديقهم.
وقد حاول إخوة يوسف لفت المخاطبين إلى أنّ الحكم بانتفاءهما متيقن لديهم بما عندهم من دلائله الواضحة التي تقتضي أن يكونوا عالمين به.
(لقد علمتم) قال بن عطية: والخطاب في لقد علمتم لطالبي الصواع،وإنما قالوا لقد علمتم فاستشهدوا بعلمهم لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأمانتهم في كرتي مجيئهم ومداخلتهم للملك. وكون القسم واقعا على قوله "لقد علمتم " فإن القسم "على أن المخاطبين عالمين بنزاهة المقسمين من الفساد والسرقة، أبلغ في البراءة مما نسب إليهم، وألزم للمخاطبين بالقناعة والقبول، لأنهم ذكروهم بما يعلمونه عنهم من الأمانة وحسن المعاملة معهم قبل ادعاء حدوث السرقة"
(ما جئنا لنفسد في الأرض): بجميع أنواع المعاصي "وما كنا سارقين" فيكونون قد أقسموا على شيئين: نفي الفساد ونفي السرقة، فإن السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض، أو لنفسد فيها أيّا إفساد كان ممّا عز أو هان فضلاً عمّا نسبتمونا إليه من السرقة وإنما أقسموا على علمهم أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين، لأنهم عرفوا أنهم سبروا من أحوالهم ما يدلهم على عفتهم وورعهم، وأن هذا الأمر لا يقع منهم بعلم من اتهموهم، وهذا أبلغ في نفي التهمة، من أن لو قالوا: "تالله لم نفسد في الأرض ولم نسرق" وعليه يكون التعبير بفعل العلم في جواب هذا القسم تأكيدا للأمرين المذكورين في حيزه.
ومما زاد من قوة تأكيد المقسم عليه أن العلم مؤكد بلام التوكيد الداخلة على (قد) التي تفيد التوكيد كذلك بما تؤذن به من أن هذا العلم من الأمور المحققة الوقوع لدى المخاطبين؛ لأنها إذا دخلت على الفعل الماضي أفادت تحقق وقوعه.
"وما كنّا سارقين"، أي ما كان شأننا ولا من خصالنا أن نتصف بوصف السرقة، وقد أكدوا نفي التهمة بالقسم، وباللام وبأن ذلك لم يكن مقصدهم وغايتهم. على أنهم نفوا عن أنفسهم الاتصاف بالسرقة بأبلغ ممّا نفوا به الإفساد عنهم، وذلك بنفي الكون سارقين دون أن يقولوا: وما جئنا لنسرق، لأنّ السرقة وصف يُتَعَيَّرُ به، وأما الإفساد الذي نفوه، أي التجسس فهو مما يقصده العدو على عدوه فلا يكون عارا، ولكنه اعتداء في نظر العدو، وعليه فإنهم قد نفوه عن أنفسهم مرتين: مرة بنفي الإفساد كله، ومنه السرقة، ومرة بنفس السرقة نفسها.
وتأكيدا على ذلك عبروا عن المنفي بفعل الكون، ليدلوا على نفي كونهم متصفين بالسرقة اتصاف سجية؛ فالمعنى كما يقول ابن كثير "ليست سجايانا تقتضي هذه الصفة". لم يكتفوا بنفي الأمرين المذكورين بل استشهدوا بعلمهم بذلك إلزاما للحجة عليهم وتحقيقا للتعجب المفهوم من تاء القسم.
وتأكيدا للتهمة التي لفقت لإخوة يوسف، ومع إصرارهم على الإنكار، أردفوا الأمر بالتحري في قولهم:
(قالوا فما جزاءه إن كنتم كاذبين): أومأوا إليهم بالتحري، وسألوهم الجزاء لمن وجد الصاع في متاعه، ليكون الجزاء به برضاهم، ولا يكون فيه غمط لهم أو تجاوز للحد، أو الشطط في زعمهم، فهذا تحكيم المرء في ذنبه قال الزمخشري: فما جزاؤه الضمير للصواع أي: فما جزاء سرقته إن كنتم كاذبين في جحودكم وادعائكم البراءة منه، وهو الظاهر لاتحاد الضائر في قوله: قالوا جزاءه من وجد في رحله، إذ التقدير إذ ذاك قال: جزاء الصاع، أي سرقته من وجد في رحله.
(قالوا جزاءه من وجد في رحله فهو جزاءه): والضمير في جزاؤه عائد على السارق. فما جزاء السارق إن كنتم كاذبين في قولكم: وما كنا سارقين له؟ وقولهم: جزاؤه من وجد في رحله، كلام من لم يشك أنهم برآء ممّا رموا به، واختاروا عنوان الوجد في السرقة مع أنه المراد لأن كون الأخذ والاسترقاق سنة عندهم ومن شريعة أبيهم عليه السلام إنما هو بالنسبة إلى السارق دون من وجد عنده مال غيره كيفما كان إشارة إلى كمال نزاهتهم حتى كأن أنفسهم لا تطاوعهم وألسنتهم لا

تساعدهم على التلفظ به مثبتا لأحدهم بأي وجه كان وكأنهم تأكيدا لتلك الإشارة عدلوا عمن وجد عنده إلى من وجد في رحله.
وقولهم فهو جزاؤه تقريرا لذلك الحكم والزامهم أي: فأخذه جزاؤه لا غير. فهذا تحكيم المرء في ذنبه وقد حكم إخوة يوسف عليهم السلام على أنفسهم بذلك وتراضوا عليه فلزمهم ما التزموه. إنما قال جزاؤه ولم يقل هو، لأن المناسب الإضمار في مثله، قالوا بل الإظهار أحسن هنا لإزالة اللبس. قال الزجاج: هو زيادة في البيان أي جزاؤه أخذ السارق فهو جزاؤه لا غير.
(كذلك نجزي الظالمين) بالسرقة، تأكيد إثر تأكيد، وبيان لقبح السرقة[46] فتأمل كيف أقام هذا القسم الحجة على الخصم، فذكر الدليل قبل تأكيد الدعوى، حتى لا يستطيع المنكر أن يسلك منحى آخر، ومع ذلك وصل إلى النتيجة التي أرادها صاحب الدعوة عن طريق الاقناع العقلي وفق حجج متسلسلة.

خاتمة:

تمحور هذه الدراسة حول القسم في القرآن من زاوية حجاجية، وقد وقفت فيها عند القسم وأقسامه وأركانه، والحجاج ومفهومه؛ ثم طبيعة القسم الحجاجي وكيف يكون القسم آلية من الآليات الحجاجية للتأكيد والاقناع، وبعد ذلك تناولت نماذج من القسم القرآني بالشرح والتحليل والتأويل؛ ومن أهم النتائج التي خلص إليها البحث:

ـ أن القسم القرآني له أغراض متنوعة: منها التعظيم والتنبيه والتحذير والتشريف والتعظيم .
ـ يعد أسلوب القسم من أهم أساليب التأكيد، والغاية منه تعظيم المقسم والمقسم عليه.
ـ منطقة الحجاج في أسلوب القسم، نظهر من خلال اختيار عناصر لغوية لها علاقة بالمقسم، والمخاطبين والمقسم عليه وطبيعة المقام المقسم فيه، وسياق ورود القسم، بحيث تشكل فضاء حجاجي عن طريق الاقناع؛ لذلك يعد القسم من أقوى الآليات الحجاجية لقوته التأكيدية، ولقداسته بحيث لا يتصور معه إلا الصدق في الحلف، وبذلك تتسع دائرة تأثيره على المخاطبين .
ـ القسم أبرز وجوه الاعجاز القرآني التي يستحيل على البشر مجاراته.

ـ قائمة الاحالات:

1ـ مقاييس اللغة، زكرياء أحمد بن فارس، تح: عبد السلام مُحَمَّد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1399هـ- 1979م،
2ـ لسان العرب، جمال الدين بن منظور، دار صادر، الطبعة الثالثة، لبنان- بيروت، 1414هـ،5/.86
3ـ تهذيب اللغة، الأزهري، تح: عبد السلام هارون، الهيئة العامة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى (1384هـ- 1964م)، 8/ .420
4ـ لسان العرب، 5/ 3630 .
5ـ أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز البياني، عمر مُحَمَّد عمر باحاذق، دار الماضون للتراث، الطبعة الأولى: (1414هـ-1994م)، ص 190- .191
6ـ القسم في القرآن الكريم، مكتبة الثقافة الدينية، حسين النصار، بور سعيد، الطبعة الأولى: 1421هـ- 2001م، ص .86
7ـ أسلوب القسم في القرآن دراسة بلاغية، علي بن مُحَمَّد بن عبد المحسن الحارثي، رسالة ماجيستر، 1441هـ- 1991م، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، 8/1.
8ـ المخصص، ابن سيده، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، 13/ .110
9ـ شرح المفصل لابن يعيش، مكتبة المثنى: القاهرة- عالم الكتب: بيروت،
10ـ الموسوعة القرآنية، إبراهيم بن إسماعيل الأبياري، مؤسسة سجل العرب، 1405هـ، 269/2.
11ـ المقتضب، لأبي عباس المبرد، تح: مُحَمَّد عبد الخالق عظيمه، عالم الكتب- بيروت، 336/2.
12ـ ينظر: المفصل في علم العربية، للزمخشري، دار الجيل- بيروت، الطبعة الثانية، ص 344.
13ـ أسلوب القسم في القرآن دراسة بلاغية، ص 21.
14ـ أسلوب القسم في القرآن دراسة بلاغية، ص 26.
15ـ ينظر: أسلوب القرآن الكريم، عمر مُحَمَّد، ص 198.
16ـ كتاب سبويه، لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تح: عبد السلام مُحَمَّد هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة، الطبعة الثانية: 1977م،3/ 497.
17ـ ينظر: الأصول في النحو، لابن سراج، تح: عبد المحسن الفتلي، مؤسسة الرسالة- بيروت، الطبعة الأولى: 1405هـ، 431/1.
18ـ أسلوب القسم في القرآن الكريم دراسة نحوية وصفية تطبيقية، عثمان الصادق علي وداعة، رسالة ماجيستر، السودان، 2010، ص 33.
19ـ مقاييس اللغة، زكرياء أحمد بن فارس، 30/2.
20ـ إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، 1407هـ- 1987م، 304/1.

21__ ينظر: لسان العرب، جمال الدين بن منظور، 2/226-228.
22__ التوقيف على مهمات التعاريف، زين الدين مُحَمَّد بن عبد الرؤوف بن المناوي، عالم الكتب، القاهرة، 1410هـ- 1990م، ص 136.
23__. اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمان، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 1998م، ص 226.
24__ النص الحجاجي العربي دراسة في وسائل الإقناع، مُحَمَّد العبد، مجلة فصول- مصر، المجلد 9، العدد 60، رجب 1426هـ- سبتمبر 2005، ص 244.
25__ اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، الطبعة الأولى: 2006م، ص 14.
26__ الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي، نادية رمضان النجار، الطبعة الأولى: 2013م- 1413هـ، ص 104.
27__الحجاج مفهومه ومجالاته، حافظ إسماعيل علوي، عالم الكتب الحديث، إربد- الأردن، 2010.
28__ القسم في القرآن، حسين النصار، 120.
29__ الكتاب، 3/104.
30__ التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، الطبعة الثالثة، 17/ 111.
31__ أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز البياني، عمر مُحَمَّد عمر باحاذق، ص 190- 191.
32__ التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم مُحَمَّد بن أبي بكر، المؤسسة السعيدية- الرياض،4/415.
33__القسم في القرآن الكريم، عن حسين النصّار ص 115.
34__ الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي، المطبعة الموسوية- مصر، 1287هـ، 2/271.
35__ مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة: 1396هـ- 1976م، 300.
36__القسم في القرآن الكريم، ص 118.
37__ من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، نهضة مصر، 2005، ص 170.
38__ القسم في القرآن، حسين النصار، ص 115.
39__ مباحث في علوم القرآن، ص 306.
40__ ينظر: التحرير والتنوير، مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، 14/87.
41__ التفسير الكبير، 28/242.
42__ اللباب في علوم الكتاب، سراج الدين عمر بن علي بن عادل، تح: عادل أحمد وآخرون، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، الطبعة الأولى: 1419هـ- 1998م، 12/86.
43__ تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، عبد الرحمان بن ناصر بن عبد الله السعدي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: 1420هـ- 2000م، 1/435.
44__ الإعجاز البياني للقرآن ومسائل بن الأزرق، عائشة مُحَمَّد علي عبد الرحمان، دار المعارف، الطبعة الثالثة، 1/247.
45__ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبي السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، 5/93.
46__ ينظر: تيسير الكريم الرحمان في تفسير الكريم المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبدالله السعدي، تح: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: 1420هـ- 2000م، 1/402. ينظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، تح: أحمد مُحَمَّد الخرّاط، دار القلم- دمشق، 6/529. ينظر: تفسير أبي سعود، 4/295-296. ينظر: زهرة التفاسير، مُحَمَّد بن أحمد بن مصطفى المعروف بأبي زهرة، دار الفكر العربي، 7/3845. ينظر: محاسن التأويل، مُحَمَّد حمال الدين القاسمي، تح: مُحَمَّد باسل عين السود، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى: 1418هـ، 6/204. ينظر: فتح البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب مُحَمَّد صديق خان بن حسن بن علي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا- بيروت، 1412هـ- 1992م، 6/375-376. (أساليب القسم والشرط في القرآن الكريم، أحمد بن عبد العزيز اللهيب، رسالة دكتوراه، جامعة الأزهر، 1395هـ، ص 497. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار المعرفة للطباعة والنشر- بيروت، 2/485.

ـــ المصادر والمراجع:

ـــ الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي، نادية رمضان النجار، الطبعة الأولى: 2013م- 1413هـ.
ـــ الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي، المطبعة الموسوية- مصر، 1287هـ.
ـــ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبي السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي- بيروت.
ـــ أساليب القسم والشرط في القرآن الكريم، أحمد بن عبد العزيز اللهيب، رسالة دكتوراه، جامعة الأزهر، 1395هـ.
ـــ أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز البياني، عمر مُحَمَّد عمر باحاذق، دار الماضون للتراث، الطبعة الأولى: 1414هـ-1994م.
ـــ أسلوب القسم في القرآن الكريم دراسة نحوية وصفية تطبيقية، عثمان الصادق علي وداعة، رسالة ماجيستر، السودان، 2010.
ـــ أسلوب القسم في القرآن دراسة بلاغية، علي بن مُحَمَّد بن عبد المحسن الحارثي، رسالة ماجيستر، 1441هـ- 1991م، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى.
ـــ أصول في النحو، لابن سراج، تح: عبد المحسن الفتلي، مؤسسة الرسالة- بيروت، الطبعة الأولى: 1405هـ.
ـــ إعجاز البياني للقرآن ومسائل بن الأزرق، عائشة مُحَمَّد علي عبد الرحمان، دار المعارف، الطبعة الثالثة.
ـــ التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم مُحَمَّد بن أبي بكر، المؤسسة السعيدية- الرياض.

_ التحرير والتنوير، مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984.
_ التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، الطبعة الثالثة.
_ تهذيب اللغة، الأزهري، تح: عبد السلام هارون، الهيئة العامة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى 1384هـ- 1964م.
_ التوقيف على مهمات التعاريف، زين الدين مُحَمَّد بن عبد الرؤوف بن المناوي، عالم الكتب، القاهرة، 1410هـ- 1990م.
_ تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، عبد الرحمان بن ناصر بن عبد الله السعدي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: 1420هـ- 2000م.
_ الحجاج مفهومه ومجالاته، حافظ إسماعيل علوي، عالم الكتب الحديث، إربد- الأردن، 2010.
_ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، تح: أحمد مُحَمَّد الخراط، دار القلم- دمشق .
_ زهرة التفاسير، مُحَمَّد ين أحمد بن مصطفى المعروف بأبي زهرة، دار الفكر العربي.
_ شرح المفصل لابن يعيش، مكتبة المثنى: القاهرة- عالم الكتب: بيروت.
_ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، 1407هـ- 1987م.
_ فتح البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب مُحَمَّد صديق خان بن حسن بن علي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا- بيروت، 1412هـ- 1992م.
_ القسم في القرآن الكريم، حسين النصار، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، الطبعة الأولى: 1421هـ- 2001م.
_ الكتاب سبويه، لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تح: عبد السلام مُحَمَّد هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة، الطبعة الثانية: 1977م.
_ اللباب في علوم الكتاب، سراج الدين عمر بن علي بن عادل، تح: عادل أحمد وآخرون، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، الطبعة الأولى: 1419هـ- 1998م.
_ لسان العرب، جمال الدين بن منظور، دار صادر، الطبعة الثالثة، لبنان- بيروت، 1414هـ.
_ اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمان، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 1998م.
_ اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، الطبعة الأولى: 2006م.
_ مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة: 1396هـ- 1976م.
_ المخصص، ابن سيده، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت.
_ المفصل في علم العربية، للزمخشري، دار الجيل- بيروت، الطبعة الثانية.
_ مقاييس اللغة، زكرياء أحمد بن فارس، تح: عبد السلام مُحَمَّد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1399هـ- 1979م.
_ المقتضب، لأبي عباس المبرد، تح: مُحَمَّد عبد الخالق عظيمه، عالم الكتب- بيروت.
_ من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، نهضة مصر، 2005.
_ الموسوعة القرآنية، إبراهيم بن إسماعيل الأبياري، مؤسسة سجل العرب، 1405هـ.
_ النص الحجاجي العربي دراسة في وسائل الإقناع، مُحَمَّد العبد، مجلة فصول- مصر، المجلد 9، العدد 60، رجب 1426هـ- سبتمبر 2005.
_ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب السلامي- القاهرة.